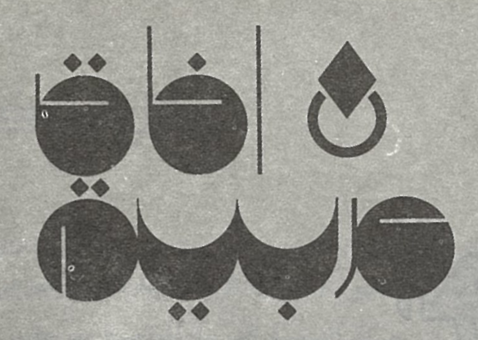

آفاق عربية



مجلة فكرية شهرية عامة تصدر في بغداد رئيس التحرير : شفيق الكمالي

السنة الرابعة
العدد 6
شباط 1979

من محتويات هذا العدد

المراسلات
مجلة افاق عربية
الصرافية ـ بغداد
هاتف : 22011 22012
صندوق بريد : 4032 اعظمية
العنوان البرقي : فاف ـ عراق



الغلاف الاول : فريسكو عربي في قصر الحمراء الاندلس
الغلاف الاخير : بغداد كما رسمها احد السواح

■ لاتعاد المقالات الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
■ تصميم وطبع موسسة رمزي للطباعة ـ بغداد . تلفون 38051

الذكاء والقدرات العقلية الخاصة

د. نوري جعفر

لا شك عندي في ان تفسير طبيعة الذكاء والقدرات العقلية الخاصة للكشف عن جوهر الفروق الفردية الموروثةوالمكتسبة [البايولوجية والبيئية او الاجتماعية] الموجودة بين الاجناس البشرية المعاصرة وبين افراد كل جنس وكل مجتمع وبين الراشدين والاطفال وبين الذكور والاناث وبين الانسان والحيوانات الراقية الاخرى القريبة منه في سلم التطور البايولوجي قضية بالغة الخطورة في الوقت الحاضر من الناحية النظرية الاكاديمية المحضة ومن ناحية مضامينها التربوية والايديولوجية وبخاصة بالنسبة للدول النامية التي تخلصت حديثا ـ بتضحياتها الجسام ـ من الاستعمار السياسي والاقتصادي وبدات بالتحرر من التبعية الثقافية البرجوازية . والقضية المشار اليها هي بنظري قضية علم النفس والتربية الاولى والاهم في الماضي وفي الحاضر وقد تركزت حولها الابحاث السايكولوجية المعاصرة بصورة خاصة في المجتمعين المتنافرين الاشتراكي والراسمالي على حد سواء .

اتضحت في علم النفس ـ وفي التربيـة بالتبعية ـ نزعتان سايكولوجيتان متنافرتان منذ اقدم العصور من ناحية تفسير طبيعة الذكاء والقدرات الخاصة والفروق الفردية بين الناس . هما : النزعة السايكولوجية ذات الاساس الميتافيزيقي اللا جسمي او اللامادي والنزعة السايكولوجية الجسمية الفسلجية . تعود جذور النزعة الاولى منهما تاريخيا الى افلاطون الفيلسوف اليوناني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . وترجع اصول النزعة الثانية الى الطبيب اليوناني بقراط الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد .تفترض الاولى منهما ـ بشكلها الحديث في الوقت الحاضر ـ دون سند علمي ان الـذكاء والقدرات العقلية الخاصة قوى فطرية فكرية موجودة منذ الـولادة بمقادير متفاوتة داخل الامم وبينها وان هذه القوى مع انها لا جسمية فانها موجودة في الجسم رغم اختلافها عنه في الطبيعة والوظيفة اختلافا جذريا نوعيا وحاسما كما انها ايضا لاتخضع لتأثير البيئة الطبيعية او الاجتماعية المحيطة بالفرد الا من حيث كون البيئة هي المجال الذي تعبر فيه تلك القوى عن نفسها . أما النزعة الثانية فتعتبر الذكاء والقدرات العقلية الخاصة وظائف او عمليات يمارسها الدماغ عند تفاعله مع البيئة وان كلا منها مؤلف من ركنين متلاحمين هما الـركن المادي [الجسمي: الدماغي] الذي هو اداتها او عضوها من جهة والركن الاجتماعي البيئي المكتسب أو الثقافي الذي يمدها بمحتواها او مضمونها السايكولوجي من جهة اخرى . وان الدماغ متماثل التركيب التشريحي والفسلجي لدى جميع الافراد الاسوياء داخل الامم وبينها في حين ان المحتوي الاجتماعي يختلف باختلاف المجتمعات والافراد وباختلاف حالات الفرد نفسه في مجرى تطوره الثقافي . وعلم النفس من وجهة النظر هذه علم طبيعي واجتماعي او انساني في آن واحد : علم طبيعي كالفيزياء والكيمياء وعلم الاحياء لانه يستند في دراسة الدماغ الى التشريح والفسلجة . وهـو علم اجتماعي لأنه يدرس محتوى الذكاء والقدرات العقلية الخاصـة من حيث كون ذلك المحتوى السايكولوجي اجتماعي النشأة في الاصل.

وعلم النفس ـ باستناده الى الفسلجة والتشريح ـ يصبح بنظرنا علما جديرا بهذا الاسم ويتخلص كليا من النزعة الفلسفية الميتافيزيقيةالتي سيطرت عليه طوال تاريخه الطويل ـ ومازالت كذلك لدى بعض الاوساط الغربية وفي الدول النامية ـ والتي ازاحت النزعة العلمية كليا عن علم النفس وحصرتها في مجال الطب الذي اغفل بدوره دراسة جوانبها السايكولوجية ومضامينها التربوية وانشغل ـبدل ذلك او على حسابهـ بجوانبها التشريحية والفسلجية الصرفة . ولكي يحتل علم النفس مكانته العلمية المشار اليها لابد ان يلم اصحابه الماما كافيا ـ في الوقت الحاضر ـ بعلم الفسلجة والتشريح بصورة عامة وبفسلجة الجهاز العصبي المركزي وتشريحه بصورة خاصة وبفسلجة الدماغ وتشريحه بصورة اخص . فكما أن الالمام الواسـع العميق بالفسلجة والتشريح ضرورة ملحة للطب الحديث فكذا الحال في علم النفس المعاصر . وكما ان الفسلجة والتشريح لم يتقدما هذا التقدم المذهل منذ النصف الثاني من القرن الماضي الا بعد ان تحررا تحررا تاما ومطلقا من الافتراضات الفلسفية الميتافيزيقية واستندا الى الفيزياء والكيمياء والرياضيات من حيث معطياتها النظرية ومن ناحية اساليبها في البحث فكذا الحال في علم النفس المعاصر ليحتل مكانته العلمية المرموقة .

يتضح اذن ان كلا من الذكاء والقدرات العقلية الخاصة مؤلـف ـ في ضوء المعرفة العلمية المعاصرة ـ من جانبين متميزين ومتلاحمين متكاملين في الوقت نفسه هما الدماغ المتماثل التركيب لدى جميع الافراد الاسوياء والمحتوى السايكولوجي ذي الاصل الاجتماعي الذي يختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها الفرد . وهذا يعني ـ بعبارة أخرى ـ ان الذكاء والقدرات العقلية الخاصة تمرـ من حيث محتواهاـ بمرحلتين هما المرحلة الخارجية او الموضوعية [البيئية : الاجتماعية : الثقافية] لان الذكاء والتطورات العقلية الخاصة هي في الاصل من حيث المحتوى ظواهر اجتماعية ثقافية لاسايكولوجية فطرية : اي ان الطفل المولود حديثا لايجلبها معه بل يجدها في المجتمع الذي يترعرع فيه لدى الكبار المحيطين به . ثم تنتقل بالتدريج ـ عن طريق التعامل معالكبار داخل المدرسة وخارجها ـ وتتحول خطوة فخطوة رويدا رويدا وبشكل متدرج ـ بعد ذلك وبتأثيره ـ الى وظائف سايكولوجية خالصة. أما اختلافها بين الافراد والمجتمعات والامم والاجناس ـ بهذا الشكل الصارخ الملحوظ ـ فمرده في الاصل ـ على ماترى ـ الى تفاوت بيئات الافراد الاجتماعية من حيث تقدمها العلمي والتكنولوجي والاجتماعي من ناحية والى تفاوت مواقع الافراد في المجتمع الذي يعيشون فيـه من جهة ثانية والى تفاوت المجالات التي يستثمر كل منهم رصيده الدماغي المتماثل ومدى ذلك الاستثمار من جهة ثالثة . فالذكي هو الذي يستثمر امكانياته الدماغية الى حدها الاقصى في الموضوع الذي يبدو ذكيا فيه . والبليد هو الذي يستثمر الحد الادنى من رصيده الدماغي في الموضوع الذي يبدو فيه بليدا . وما يصدق على الافراد داخل الامم يصدق ايضا على الامم ذاتها . وعلى هذا الاساس فـان بدائية التفكير الواضحة لدى الانسان البدائي القديم ولدى بعض الافراد في المجتمع المتخلف الحديث ناجمة في الاصل على ما نـرى عن بدائية بيئته الاجتماعية الثقافية . غير ان بدائية التفكير هذه تعمل بـدورها على جعل البيئة الاجتماعية الثقافية اللاحقة بدائية كذلك . وهكـذا دواليك . ومرد ذلك في الاساس راجع الى كون البيئة البدائية يعوزها هذا المقدار الضخم من عوامل الحفز الايجابية المتوفرة في البيئـة الاجتماعية المتقدمة او الراقية التي تستثير التفكير وتتحداه وتحثه على العمل المتواصل للسيطرة على الطبيعة بعد فهمها فهما موضوعيـا وادراك قوانينها وعلاقات اجزائها . كما ان عوامل الحفـز في البيئـة البدائية مع تفاهتها وضآلتها هي سلبية في جوهرها تصد صاحبهـا

عن مواجهة الطبيعة بحزم وجرأة ولا توجه اهتمامه الا الى الظواهر التافهة وتجعله في الوقت نفسه خاضعا لها يتحاماها ويسترضيها بالنذور والعبادات والطقوس المعروفة .

لو نظرنا الى الذكاء والقدرات العقلية الخاصة الموجودة لدى الشخص الراشد المتعلم الحديث لوجدناها ـ بعد التحليل الدقيق ـ ثمرة عمليتي تطور مختلفتين هما : عملية التطور الدماغي التي يمر بها بين سن الطفولة والرشد من ناحية وعملية التطور الاجتماعي الثقافي التي يتحول أثناءها ذلك الفرد الى راشد متعلم حديث من ناحية اخرى . والتطور المشار اليه ـ بجانبيه الدماغي والثقافي ـ هو في الاصل التاريخي حصيلة عمليتين تطوريتين اخريين واسعتي النطاق مر بهما النوع الانساني في مجرى تاريخه الطويل : نشأت اولاهما على المستوى الدماغي في أول الامر ونشأت بعدها ومعها وعلى اساسها وبتأثيرها عملية تطور تاريخية اجتماعية ثقافية خاصة ينفرد بها الانسان دون سائر المخلوقات بما فيها الراقية القريبة منه في سلم التطور البايولوجي . وهذا هو الذي يفسّر لنا سر اختلاف نمو الفرد بين الطفولة والرشد اختلافا نوعيا جذريا وحاسما عن نظيره الذي يحصل لدى الحيوانات الراقية الاخرى . وهذا الاختلاف الحاسم يستند في الاصل الى عملية الاكتساب البيئي الاجتماعي الثقافي الذي تفتقر اليه الحيوانات الراقية الاخرى . وعملية الاكتساب الاجتماعي أو الامتصاص الثقافي هذه هي التى مكنت كل جيل من الاجيال البشرية المتعاقبة من الانتفاع بالخبرة الاجتماعية التاريخية التي تكدست لدى النوع الانساني عبر تاريخه الاجتماعي الطويل عن طريق اللغة والمعرفة في جميع فروعها وفي شتى مراحل تطورها . أما الحيوانات الراقية الاخرى فان الخبرة الفردية التي تكتسبها صغارها اثناء تطورها تقتصر فقط على ماترثه من اسلافها من غرائز بدائية محدودة العدد ومن مشاعر بدائية ايضا . يضاف اليها وبالاستناد اليها ما تكتسبه صغارها من عادات بدائية بسيطة تزول بزوالها . أي ان خبرة الحيوان هي في الاساس خبرة بايولوجية عامة مشتركة لدى افراد النوع يكتسب كل حيوان خبرة فردية خاصة به [على أساس الرصيد البايولوجي المشترك] تبقى معه ما بقي على قيد الحياة وتفنى بفنائه .

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول : ان جميع الناس يولدون متماثلين ـ ولا نقول متساوين بالطبع بل متقاربين ـ في مقوماتهم الجسمية لاسيما الدماغية . وان الاختلافات الفكرية الكبيرة والكثيرة التي نشاهدها بينهم في مستوى تقدمهم العلمي والتكنولوجي وفي مدى مساهمتهم الايجابية في التقدم الاجتماعي الثقافي تعود في الاصل الى اختلاف بيئاتهم الاجتماعية او اختلاف الفرص المتاحة امامهم لاستثمار طاقاتهم الدماغية الى حدها الاقصى في مجالات العلم والثقافة . واذا استثنينا الاشخاص الذين يولدون بنقص في ادمغتهم او يتعرضون الى ذلك النقص في مجرى حياتهم فان كل تخلف في تفكير احدهم مرده الى بيئته الاجتماعية .

وقد ثبت علميا وعن طريق المشاهدة ان التخلف السايكولوجي الذي يتصف به الطفل السوي يعود في الاصل الى تخلف نموه الدماغي والثقافي : فمن الناحية الدماغية يكون الطفل في بداية نشوئه مفتقرا الى المزايا الفسلجية والتشريحية التي تتضح لديه بالتدريج صعودا الى مرحلة النضج التام في مراحل نموه اللاحقة . ومن الناحية الاجتماعية الثقافية يولد الطفل خلوا من اللغة والمعرفة ومن ابسط مقومات الحياة الاجتماعية . اما دماغه فيبقى غير مكتمل النضج قبل السنة السابعة من عمره . وان المخ الذي تبلغ مرونته الفسلجية اقصى درجات ارتفاعها في السنوات الخمس الاولى من حياة الفرد فيصبح متحجرا من الناحية الوظيفية عند فقدانه الظروف البيئية الاجتماعية الثقافية الملائمة : والطفل الذي لاتتخذ بحقه الاجراءات الايجابية الكفيلة بتوجيهه طوال السنوات الاولى الخمس من حياته يصبح بعد ذلك صعب التدريب . وعلى هذا الاساس فان تعذر ارتفاع مستوى تفكير الاشخاص الراشدين البدائيين وفي المجتمعات المتخلفة المعاصرة الى مستوى معين من الثقافة يعود في الاساس الى ان مخهم لم يجد في فترة مرونته الفسلجية اثناء الطفولة الظروف البيئية الملائمة التي يجدها اقرانهم في المجتمعات الراقية . وقد ثبت في ضوء علم الجراحة الحديث ان الطفل الذي يصاب بالحمى الطويلة الامد ـ وهي ظاهرة كثيرة الحدوث بين الشعوب المتخلفة المعاصرة ـ تتعرض خلاياه الدماغية الى التخريب ولا سبيل لتعويضها . ومما يزيد الطين بلة ما يتعرض له هؤلاء البدائيون من نقص في التغذية من حيث نوعها ومقدارها .

والخلاصة : ينبغي البحث في البيئة الاجتماعية العامة والمحلية ـ لا في طبيعة الفرد بالمعنى السايكولوجي الميتافيزيقي المجرد عن الزمان والمكان ـ للكشف عن العوامل الحقيقية التي جعلت زيدا من الناس ذكيا بمقاييس عصره ومجتمعه وجعلت عمرا بليدا بالمقاييس ذاتها . كما ينبغي العمل ـ في الوقت نفسه ـ وبصورة عديمة الانقطاع وفي عدة جبهات على تحسين بيئات الافراد الاقتصاديـة والثقافية بالدرجة الاولى والأهم ليتسنى لكل منهم ان يستثمر اكبر مقدار من رصيده الدماغي في احد المجالات الاجتماعية والعلمية التي يجنح منذ طفولته المبكرة نحوها مع التوجيه الدائم الفعال ليساهم في تقدم المجتمع ماديا ومن الناحية الثقافية . وبامكاننا لغرض التوضيح والتبسيط ان نشبه البيئة الاجتماعية بالارض بطبقاتها الجيولوجية المتعددة المتراكمة وان نشبه الامكانيات الدماغية لدى الفرد بالثروة المعدنية المطمورة داخل الارض . وعلينا التنقيب بالتربية والوسائل الاجتماعية الاخرى عن الثروة المخية على نسق التنقيب الجيولوجي في طبقات الارض عن الثروة المعدنية المطمورة في باطنها . واذا كان بمستطاع الانسان ان يستنزف في المستقبل غير البعيد الثروة المعدنية الموجودة في باطن الارض بفعل تناقص كمياتها بمرور الزمن فان استنزاف الثروة البشرية غير محتمل الوقوع وبخاصة في الاجيال المتتالية التي لا حد لتعاقبها . ولتحقيق ذلك على افضل وجه وبخاصة في المجتمعات النامية لابد من نشر التعليم على أوسع نطاق مستطاع واعادة النظر جذريا في اساليب التدريس ومناهج الدراسة وفي الادارة المدرسية مع تنقية علم النفس من الآراء العتيقة الميتافيزيقية التي اشرت اليها . وهو الذي بدت طلائعه في العراق في اعقاب ظفر ثورة 17ـ30 تموز التقدمية .

اهم مصادر البحث

1: Butcher, H.J., Human Intelligence, London, Methuen, 1973.

2: Clark, D. H., editor, the Psychology of Education, NewYork, The Free Press, 1967.

3: Guilford, J.P., The Nature of Human Intelligence, NewYork, 1971.

4: Luria, A.R., The Working Brain, London, Penguin, 1973.

5: Hunt, J.M., editor, Human Intelligence, New-Jersey, Dutton, 1972.

6: Vernon, Philip E., The Structure of Human Abilities, London, Methuen 1963.